علم المعاني بين النحو والبلاغة

دراسة نقدية مقارنة للنشأة والتطور

أحلام موسى حيدر الزهاوي
كلية التربية / الجامعة المستنصرية
قسم اللغة العربية

بسم الله الرحمن الرحيم

عرف العرب الالفاظ كما عرفوا المعاني وكان لكل منهما شأنه في كلامهم شعراً كان او نثراً ، فالشاعر يسعى الى ابراز معانيه باختيار احسن الالفاظ وكذلك العالم لغوياً كان او بلاغياً ، فقد اكدوا اختيار الالفاظ المعبرة عن معانيها واستخدامها في مواضعها وتوخي الدقة في استعمالها بحيث تؤدي المعنى المطلوب ، وفرقوا بين الالفاظ الفصيحة والمبالغة والصادقة والمبدعة ، ورفضوا المشكوكة والغامضة والكاذبة منها ، ولقد بُنيت معظم الشواهد النقدية المعروفة في كتب التراث على اساس الاختيار للمعاني والالفاظ بشكل يخدم النص ويؤدي الغرض منه ، مما يدل على عمق نظرية اللفظ والمعنى عندهم .

عُرفت المعاني – في بداية الامر – بوصفها مفهوماً مفرداً له علاقة وثيقة بالالفاظ ، وقد تعامل معها النقاد والبلاغيون على هذا الاساس فكانت لفظة المعاني تتردد على السنتهم وفي كتبهم بما تعنيه من مفهوم وتطورت هذه المسأله بتطور علوم اللغة العربية وازدادت تطوراً بعد نزول القرآن الكريم وارتباطها بالاعجاز والنظم حتى غدت نظرية مستقلة لها اطرافها الواسعة التي امتدت لتشمل ميادين النحو والبلاغة والادب ، ثم استقربها . الحال في ميدان البلاغة ، وبالتحديد في باب علم المعاني ، بعد تطورها على يد الجرجاني ، وعلى اساس العلاقة بين اللف . والمعنى كانت معظم اراء العلماء الذين انقسموا بين مؤيد للفظ ومؤيد للمعنى وموفق بينهما ، بالنظم والاسلوب ، كما سنلمس ذلك من وقوفنا على الاراء التي قيلت فيها .

تنبه سيبويه (١٨٠ هـ) قبل غيره من العلماء الى اساليب الكلام حسب معانيها ، وذهب الى ان تلك المعاني تتأثر بها وتتغير بتغيرها فقسم الكلام على هذا الاساس الى خمسة اقسام هي : (مستقيم حسن ، ومحال ومستقيم كذب ، ومستقيم قبيح وما هو محال كذب)[١] ثم وضح ما ذهب اليه فضرب الامثلة لكل منها فقال : « فأما المستقيم الحسن فقولك أتيتك امس وسآتيك غداً »[٢] ، وهو تركيب واضح البناء والمعنى ، (واما المحال فان تنقض اول كلامك باخره فتقول آتيتك غداً وسآتيك امس »[٣] فالتناقض بين الحدث والزمن في القولين السابقين ، ادى الى تناقض المعنى ، « واما المستقيم الكذب فقولك : حملت الجبل وشربت ماء البحر ونحوه »[٤] فهو مستقيم في بنائه ، كذب في معناه ، لان الغرض منه المبالغة ،، « واما المستقيم القبيح فان تضع اللفظ في غير موضعه نحو قولك : قد زيداً رأيت ، و : كي زيداً يأتيك ، واشباه ذلك »[٥] ، فاختلاف الرتب باستخدام حروف الافعال للاسماء ، ادى الى اختلال المعنى ، وهو وجه القبح فيه .

ومع ان سيبويه مهد بالتقسيمات آنفاً ، لنشأة علم المعاني ، الا أن اراءه لم تلق صدى عند من جاء بعده من النحاة واللغويين وعلماء الدراسات القرآنية ، اذ اتبعوا مناهج مختلفة في مؤلفاتهم تباينت بين دراسة لغوية لمعاني المفردة ، او اسلوبية لتراكيب الكلام واكتفوا باشارات او ملاحظات عابرة ، فالفراء (٢٠٧ هـ) تناول المعاني من جانبها اللغوي ، ولا سيما في كتابه معاني القرآن ، اذ وقف عندما قد يشكل على القارىء من الفاظ يحتاج الى عناء في فهمه »[٦] فاختلف بذلك عن سيبويه الذي كانت ملاحظاته اسلوبية .

واشار محمد بن المستنير (٢٠٦) - المعروف بقطرب - مع جماعة من النحويين الى تقسيمات المعاني ، فقالوا : « معاني الكلام اربعة : خبر واستخبار وامر ونهي »[٧] وجعلوا التمني والدعاء من تقسيمات الخبر ، واكتفوا بالاشارة الى الاختلافات بينها ، وبهذا يكون قطرب ومن معه اول من اطلق عبارة (معاني الكلام) على تقسيمات الخبر والانشاء التي اصبحت فيما بعد مباحث علم المعاني خلافاً لما ذهب اليه الدكتور احمد مطلوب عندما جعل هذه الاولوية لاحمد بن فارس (٣٩٥ هـ) الذي ذكر هذه العبارة في كتابه الصاحبي ، وقد نسبها الى اهل العلم .

وعلى ما سبق تكون دراسة قطرب وجماعته دراسة تركيبية لا ساليب الكلام التي وقفوا عندها تبعهم الاخفش (٢١٥ هـ) الذي زاد على تلك التقسيمات بجعله التمنى والدعاء اقساماً لمعاني الكلام فقال : « معاني الكلام ستة : خبر واستخبار وامر ونهي ودعاء وتمني »[٨] ثم عرضها وساق الامثلة والشواهد لكل منها .

وللاخفش وقفة مع المعاني في كتابه (معاني القرآن) الذي اتبع فيه منهجاً واضحاً لتفسير معاني القرآن ، مستعيناً بالقرآن نفسه لايضاح بعض الآيات فضلاً عن استعانته بالشواهد الشعرية والاقوال العربية . والمعاني التي يقصدها الاخفش في كتابه هي معاني الالفاظ اللغوية وبيان الظواهر الاعرابية واختلاف الرسوم القرآنية واتباع اللغات المشهورة في قراءتها ، من ذلك وقوفه عند كلمة (السلم) ودلالاتها في بعض الآيات القرآنية كقوله تعالى : (ادخلوا في السِّلم كافة)[٩] بقوله : « والسِّلم : السلام وقوله (وتدعو الى السِّلم وانتم الاعلون)[١٠] ذلك الصلح وقد قال بعضهم في الصُّلح : السلم : (ويلقوا اليكم السلم)[١١] وهو الاستسلام وقال : (واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما)[١٢] ، اي قالوا براءة منكم لان السلام في بعض الكلام هو البراءة ، يقول : (إنما فلان سُلام سِلام ، أي : لا يخالط احداً »[١٣] لهذا فان دراسة المعاني عند الفراء ، كانت دراسة لفظية خاصة بمعاني المفردات ودورها في المعنى العام للنص ، في حين ان دراسة قطرب - ومن تبعه من النحاة - والاخفش اسلوبية وان اختلفت دراسة الاخير في (معاني القرآن) ، كما لاحظنا .

مما سبق ، يتبين ان للنحاة واللغويين دوراً بارزاً في نشأة علم المعاني ، ومع أن اراءهم تلك لم تتجاوز الملاحظات والتقسيمات العامة - كما في دراسة سيبويه - الا انها شكلت قاعدة بنى عليها البلاغيون اساس علم المعاني فيما بعد ، فكان ميدان النحو بذلك مجالاً خصباً لنشأة هذا العلم وتوسعه وانتقاله الى ميادين وبيئات علمية متعددة فقد تعرض الجاحظ (٢٥٥ هـ) الى المعاني في مؤلفاته وبين دورها في بلاغة الكلام ، فقال : « لا يكون الكلام يستحق اسم البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه ، فلايكون لفظه اسبق الى سمعك من معناه الى قلبك »[١٤] فبلاغة الكلام عنده مرتبطة بمعانيها ومقياسها ان تصل الى القلب وتؤثر في النفس قبل الالفاظ .

ووقف ابن قتيبه (٢٩٦ هـ) عند تعدد المعاني للفظ الواحد وتأثير النظم فيه ، من ذلك تعدد معاني لفظة (الوحي) بتعدد نسق النظم الذي وردت فيه كقوله تعالى : (إنا اوحينا اليك كما اوحينا الى نوح)[١٥] ، والوحي هنا هو أرسال جبريل بالقرآن ، وقوله تعالى : (فأوحى اليهم ان سبحوا بكرة وعشيا)[١٦] وتعنى هنا الاشارة ، وتأتي بمعنى الالهام ، كما في قوله : (واوحى ربك الى النحل)[١٧] ، أي الهمها ، وتأتي ايضاً بمعنى الاعلام في المنام كقوله : (وما كان لبشر ان يكلمه الله الا وحياً)[١٨] وتأتي بمعنى الامر ايضاً كقوله : (بان ربك اوحى لها »[١٩] اي : امرها »[٢٠]

وايد الخطابي (٣٣٨ هـ) في رسالته (بيان اعجاز القرآن) فكرة النظم وصلته بالاعجاز ، فذهب الى ان ، الصلة الوثيقة بينهما ادت الى حسن النظم فقال : « واعلم ان القرآن انما صار معجزاً لانه جاء بافصح الالفاظ في احسن نظوم التاليف مضمناً اصح المعاني »[٢١]

وشبه ابو هلال العسكري (٣٩٥ هـ) المعاني بالابوان وبالكسوة التي تتجدد بتجددها ، وتجري مجراها ، مفضلاً بهذا التشبيه ، المعاني على الالفاظ بقوله : « ان الكلام الفاظ وتشتمل على معانٍ تدل عليها ، ويُعبرّ عنها ، فيحتاج صاحب البلاغة الى اصابة المعنى كحاجته الى تحسين اللفظ لان المدار يعد على اصابة المعنى ، ولان المعاني تحل من الكلام محل الايدان ، والالفاظ تجري معها مجرى الكسوة ، ومرتبة احدهما على الاخرى معروفة »[٢٢]

ولنا مع احمد بن فارس (٣٩٥ هـ) وقفة اخرى مع معاني الكلام اذ اكتفى بذكر تقسيماتها عند اهل العلم فقال : « وهي عند اهل العلم عشرة : خبر واستخبار وامر ونهي ودعاء وطلب وعرض وتحضيض وتمنٍ وتعجب »[٢٣] والملاحظ اضافة ابن فارس تقسيمات جديدة الى ما سبق موسعاً بذلك من دائرة هذا العلم .

ووقف الباقلاني (٤٠٣ هـ) عند مسألة النظم في القرآن الكريم وذهب الى ان اعجاز القرآن في نظمه وتأليفه ، وكذا القاضي عبد الجبار المعتزلي (٤١٥ هـ) الذي تعمق في تحليل الأعجاز القرآني ونبه الى خصائص عدة للنظم فيه ، فقد راى : « أن الاعجاز من جهة فصاحة الكلام وربط ذلك بالنظم وسماه يضم الكلام على طريقة مخصوصة على ان تكون لكل كلمة صفة تتولد من

ذلك الضم »[٢٥] وقال في موضع اخر مشيراً الى هذه المسألة : « ان اعجاز القرآن لا يتم الا بجزالة لفظه وحسن معناه وقد علمنا ان المتناقض في الكلام لا يصح معناه »[٢٦] وهو بذلك اسبق من الجرجاني في الربط بين النظم والاعجاز في القرآن الكريم .

لقد تساهمت بيئة المتكلمين - بتبنيها مسألة النظم في القرآن الكريم - في اغناء علم المعاني ، وكانت جهود علمائها ، لمسات طيبة طورت هذا الموضوع وفتحت باباً جديداً في دراسته .

لقد رسم النظم ومقاييسه التي حددها العلماء مداراً دينياً ولغوياً لهذا الجانب ألهام من العلوم العربية فكان بنية اساسية بنى عليها الجرجاني نظريته في نظم الكلام ومعانيه ، والجرجاني ، (٤٧١ هـ) ابرز من وقف عند المعاني بين من درسوا هذا الموضوع ، وقد بلغت دراسته ذروتها بعد ان رفع قواعدها وحدد معالمها وكون منها نظرية متكاملة ، عكست قدرة هذا العالم الكبير في مضمار علمه

تتلخص فكرة الجرجاني في جانبين مهمين هما : (النظم والمعاني) ، فالنظم وهو عنده : « تعليق الكلم بعضها ببعض ، وجعل بعضها يسبب من بعض »[٢٧] عبارة عن الصلة التي تربط الالفاظ ببعضها على وفق قواعد اللغة ، كما يذكر : (اعلم ان ليس للنظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه واصوله »[٢٨] واذا ما تم ذلك فان التراكيب التي تتألف من ذلك النظم تؤدي معاني مختلفة تختلف باختلاف هذه الصلات ، ونبّه الجرجاني ان هذه الخصائص لا توجد الا في اضرب معينة من الكلام حددها بقوله : « الكلام على ضربين : ضرب انت منه تصل الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ذلك اذا قصدت ان تخبر عن (زيد) مثلاً بالخروج على الحقيقة فقلت (خرج زيد) وبالانطلاق عن (عمرو) فقلت (عمرو منطلق) وعلى هذا القياس ، وضرب آخر انت لا تصل منه الى الغرض بدلالة اللفظ وحده ، ولكن يدلك اللفظ على معناه الذي يقتضيه موضوعه في اللغة ، ثم تجد لذلك المعنى دلالة ثانية تصل بها الى الغرض »[٢٩] .

من هذا النص نستنتج ملاحظتين :

الاولى : ان للكلام معاني غير ظاهرة يصل اليها القاري بعد تجاوز المعاني الوضعية الظاهرة للالفاظ .

الثانية : ان هذا الضرب من المعاني لا يوجد الا في البليغ من الكلام لذلك جعل الجرجاني مدار هذا الامر على الكناية والاستعارة والتمثيل ، عليه فهو يدعو الى دراسة دقيقة وتأمل عميق للنصوص بغية الوصول الى ما خفي منها من المعاني ، والخطوة الاولى في ذلك هو استيعاب الدلالة الوضعية ثم استنباط المعاني الاصلية المقصودة من خلالها ، وهي الخطوة الثانية ، ويطلق الجرجاني لفظة (المعنى) على الخطوة الاولى و (معنى المعنى) على الخطوة الثانية ويفرق بينهما بقوله : « فههنا عبارة مختصرة وهي ان تقول : (المعنى) ومعنى المعنى تعني بالمعنى ، المفهوم من ظاهر اللفظ والذي تصل اليه بغير واسطة و (بمعنى المعنى) ان تعقل من اللفظ معنى ثم يفُضي بك ذلك المعنى الى معنى اخر »[٣٠] ولا شك في ان (معنى المعنى) يقتضي دقة في تفهم النص للوصول اليه .

الملاحظة المهمة في دراسة الجرجاني ، انه اعتمد الموضوعات النحوية اساساً بنى عليه نظريته ، وقد دعا الى اتباع تلك الموضوعات وما يتصل بها من قوانين واصول عند صياغه التراكيب على ان تدرس الفروض بينها تبعاً لمعانيها لا لتراكيبها وحركاتها الاعرابية وقد رد الجرجاني جميع مزايا النظم الصحيحة والفاسدة الى معاني النحو واحكامه وجعلها تدخل في اصل من اصوله او باب من ابوابه فذكر : « انه لا يتصور ان يتعلق الفكر بمعاني الكلم افراداً او مجردة من معاني النحو »[٣١] تاكيداً منه على ان النظم قائم على اساسين هامين : الاول : تعلق الالفاظ والمفردات بعضها ببعض

الثاني : ترتيبها على وفق قواعد النحو وقوانينه وهذا يعني ان مخالفة تلك القواعد يسبب اخلالاً وارباكاً في المعنى ، وقد ضرب الجرجاني مثالاً لتجسيد ذلك فقال : « وان اردت ان ترى ذلك عياناً فاعمد الى اي كلام شئت ، وازل اجزاءه عن مواضعها وضعها وضعاً يمتنع معه دخول شيء من معاني النحو فيها ، فقل في (قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل) (من نبك قفا حبيب ذكرى منزل) ثم انظر ، هل يتعلق منك فكر بمعنى كلمة منها »[٣٢] ولا شك في ان كلامه هذا ينصب في المقام الاول على النظم وتاثيره في المعنى

ولعلنا نلاحظ - مما سبق - اهتمام الجرجاني بالمعاني ودورها في التراكيب ، ولقد نوه في مواضع عدة من كتابه بفضلها على الالفاظ في اوجه ، فهي تسبقه الى الفكر ، وتؤثر في النفس ، ويقتضيها النظم قبله وهي المقصودة ابداً : « فأما ان تتصور في الالفاظ ان تكون المقصودة قبل المعاني بالنظم والترتيب ، وان يكون الفكر في النظم الذي يتواصفه البلغاء فكراً في نظم الالفاظ ، أو ان تحتاج بعد ترتيب المعاني الى فكر تستأنفه لان تجيء بالالفاظ على نسقها ، فباطل من الظن ووهم يتخيل الى من لا يوفي النظر حقه »[٣٣]

ومع الجهود العلميه الكبيرة التي بذلها الجرجاني في بناء نظريته والنهوض بها ، فان اراءه وما توصل اليه لم تلق اهتماماً مطلوباً من العلماء بعده سواء النحاة منهم او البلاغيين ، فقد اصاب نظريته الجمود ، اذ لم نجد لها اثراً يذكر في دراساتهم الا القليل فالسكاكي (٦٢٦ هـ) صاحب كتاب (مفتاح العلوم) افاد من اراء الجرجاني وجعل من نظريته قسماً من اقسام علم البلاغة الثلاثة المعاني والبيان والبديع ، والقسم الاول منها هي خلاصة فكر الجرجاني التي قصد منها توخي معاني النحو ، وقد عرفها بقوله : « هو تتبع خواص تراكيب الكلام في الافادة وما يتصل بها من الاستحسان وغيره ليحترز بالوقوف عليها من الخطأ في تطبيق الكلام على ما يقتضي الحال ذكره »[٣٤] ويرى

الدكتور احمد مطلوب ان السكاكي هو اول من اطلق مصطلح (علم المعاني) على الموضوعات التي سماها عبد القاهر بالنظم او معاني النحو ، وبهذه التسمية ، انتقل (علم المعاني) بشكله الاصولي الى ميدان البلاغة ، بعد ان اهمله النحاة ، مع تاكيد الجرجاني ان نظريته قائمة على اصول النحو وقواعده .

وافاد القرطاجني من اراء الجرجاني بشكل واسع في كتابه (منهاج البلغاء) عند دراسته لعلم المعاني ، وان كان منهجه في هذه الدراسة واضح التاثير بالفكر الفلسفي اليوناني .

تتلخص فكرة القرطاجني في ان : « المعاني هي صورة منقولة من الواقع الى فهم السامع عن طريق الذهن ، وتقوم الالفاظ بتجسيدها وتصويرها الى السامعين والقارئين ، وهذا يعني ان للمعاني صورة حقيقية لها وجود في الاعيان ، وخيالية لها وجود في الاذهان ، وتقوم الالفاظ والخطوط بنقل تلك الصورة من موقعها الاول الى موقعها الثاني »[٣٥] ، ويحدد القرطاجني مجال المعاني بميدانين مهمين هما : الشعر ، والخطابة وميدان الشعر عنده اهم لهذا وقف عنده طويلًا ، وبين تقسيماته وفصل القول فيه ، قائلًا : « والمعاني الشعرية منها ما يكون مقصوداً في نفسه بحسب غرض الشعر ومعتمداً ايراده ، ومنها ما ليس بمعتمد ايراده ولكن يورد على ان يحاكى به ما اعتمد من ذلك او يحال به عليه او غير ذلك . ولنسم المعاني التي ليست من متن الكلام ونفس الغرض ولكنها امثلة لتلك او استدلالات عليها او غير ذلك لا موجب لا يرادها في الكلام غير محاكاة المعاني الاول بها او ملاحظة وجه يجمع بينهما على بعض الهيئات التي تتلاقى عليها المعاني ويصار من بعضها الى بعض ، المعاني الثواني ، فتكون معاني الشعر منقسمة الى اوائل وثواني »[٣٦] وهو بذلك يتبع الجرجاني في تقسيمه للمعاني ، ويفصل القرطاجني القول في بيان اهمية كل منها فقال : « وحق الثواني ان تكون اشهر في معناها من الاول لتستوضح معاني الاول بمعانيها الممثلة بها ، او تكون مساوية لها لتفيد تاكيداً للمعنى »[٣٧] اشارة منه الى الصلة بين المعاني « الاول والثوان) ، وتختلف المعاني من حيث الوضوح والابهام باختلاف المقاصد ، فهي عنده بدلائل ثلاث ، دلالة ايضاح ودلالة ابهام ، ودلالة ايضاح وإبهام ، ولعله يقصد بهذه الدلائل المعاني الظاهرة والمعاني الخفية الكامنة خلفها وهي ايضاً من تقسيمات الجرجاني .

ومهما يكن من امر ، فان القرطاجني أفاد من جهود الجرجاني العلمية ، وأخذ باطرافها ، وابدى اراءه الخاصة .. ، مضيفاً بذلك الكثير الى علم المعاني بيد ان جهوده لم تكن اوفر حظاً من جهود الجرجاني التي أصابها الجمود ، ولم تصادف بعد كتابه كتاباً آخر وضع في البلاغة ، سوى كتب التلخيص المتعددة ، التي ألفت اختصاراً لكتاب مفتاح العلوم للسكاكي الذي قدر لمنهجه البقاء ، اذ لا تزال تقسيماته لعلم البلاغة والحدود التي وضعها هي المتبعة في الدراسات البلاغية

لقد اصاب علم البلاغة بعد الجرجاني والقرطاجني ، ما اصابها من الجمود والانحلال ، وزاد امتزاجها بالعلوم الاخرى ، كالمنطق والفلسفة وعلم الكلام من جمودها وضياعها ، فتحورت نظرية النظم الى علم المعاني ، هذا المصطلح الذي اصبح قسماً من اقسام البلاغة ، الميدان الذي استقرت فيه اشهر نظرية لا برز عالم في ميدان المعرفة العربية .

معاني النحو ومعاني البلاغة

المعاني جزء مهم من تكوين اللغة ، وان ما سمى بـ(علم المعاني) قد نظر اليه كثير من النحاة على انه من علمهم لصلته بالكلام وما يتصل به من الظواهر الاعرابية ، إذ ان بوادره – كما لاحظنا – ظهرت عندهم ، فقد اشار اليها سيبويه وبعض النحاة ، ثم اهملوها لا نشغالهم بالاعراب وظواهره ، فبقي هذا الجزء الدقيق من اللغة مغموراً حتى ظهر الجرجاني في القرن الخامس الهجري بـ(دلائل الاعجاز) الذي وضعه لدراسة مسألة اعجاز القرآن الكريم ونظمه ، وبظهوره تبين ثقل هذا الموضوع واتضحت صلته بتراكيب الكلام وزادت اهميته عندما جُعل وجهاً من وجوه الاعجاز ، وبهذا ؛ كان لا بد لهذا العلم ان يأخذ مكانه بين العلوم الاخرى ، وقد مهد الجرجاني لذلك عندما وضع (نظرية النظم) التي تستند في اساسها الى قواعد النحو وتهدف الى دراسة احد وجوه الاعجاز القراني من باب نظمه ومعانيه ، وهو جانب بلاغي بحت

من هنا بدأ الخلاف على نمط هذا الموضوع ، هل هو نحوي ويجب انتماءه الى النحو ، ام بلاغي ويجب ان ينظم الى ميدان البلاغة ، ام هو علم قائم بذاته له قوانينه واصوله ومناهجه ، فهو من جانب يستند الى قواعد النحو في منهجه ويعتمد موضوعات نحوية ، ومن جانب اخر يتبع منهجاً بلاغياً في دراسته ويقتضي الخوض فيه دراية وذوقاً ادبياً .

لقد استقر هذا العلم – في نهاية المطاف – في ميدان البلاغة كما اشرنا ليصبح من ابرز اقسامه ، وربما توضح هذه الدراسة الاسباب التي ادت الى ذلك .

يُعرّف النحاة النحو بانه : « اللفظ المفيد فائدة يحسن السكوت عليه »[٣٨] ويشمل اللفظ هنا الكلام بانواعه ، ويقصد بالمفيد ، الكلام عدا المهمل ، اما عبارة (يحسن السكوت عليه) فيعني الكلام المفهوم ويعرف البلاغيون علم المعاني بانه : « الكلام المطابق لمقتضى الحال »[٣٩] والمقصود بمقتضى الحال ، حال المخاطب التي تؤخذ بنظر الاعتبار فينزل المتكلم منزلتهُ الثقافية والفكرية سعياً الى فهمه .

عليه فان الكلام هو المحور الاساس للعلمين الرئيسين (النحو والبلاغة) الا ان موضع الخلاف يكمن في كيفية تعامل كل منهما معه ، فالمعروف ان النحو علم يختص بظاهر الكلام ويعتمد المراتب والظواهر الاعرابية اساساً في دراسته ، فانصب اهتمامهم على ذلك واهملوا المعاني ، مع علمهم بصلتها الوثيقة بينهما ، فالحركات الأعرابية دوال على المعاني وتفضي الى اتمامها

وتوضيحها ، كما ان المراتب واختلافها تلعب دوراً في المعاني .

وعلم النحو على هذا يلاحظ تراكيب الكلام وتأثير الحركات الاعرابية عليها ، ويهمل المعاني ، اذن فهي دراسة لجانب واحد من الكلام ، فمثلاً في تقديم الخبر على المبتدأ او المبتدأ على الخبر ، تذكر علة نحوية استناداً الى قاعدة نحوية عامة تقاس عليها كل التراكيب والجمل التي يأتي فيها الخبر مقدماً او مؤخراً ، وهي حالة تنطبق على كل الموضوعات النحوية .

واذا كان ذلك شأن النحو ، فان تراكيب الكلام وما يطرأ عليها من تغيير ، والمعاني المترتبة على ذلك ، يشكل المحور الاساس لعلم المعاني على ان تكون على وفق قوانين النحو ، وهو ما اكّده الجرجاني بقوله : « اعلم ان ليس النظم الا ان تضع كلامك الوضع الذي يقتضيه (علم النحو) وتعمل على قوانينه واصوله »[٤٠] اشارة منه الى الصلة الاساسية بين الموضوعين وهي نقطه التماس بينهما ، عليه : فالعلمان متفقان في الاساس مختلفان في المنهج والتطبيق ، فالنحو يتعامل مع التراكيب شواهد نحوية ، تجسد ظواهر اعرابية مختلفة ، والمهم في هذه الشواهد ان تكون صحيحة ومطابقة للقواعد ، وان كانت تراكيب اعتيادية لا تتعدى الاخبار ، في حين ان علم المعاني يعدها تراكيب لغوية تنطوي على اساليب عدة ، تختلف باختلافها ، وهذه الاساليب تمثل الموضوعات النحوية التي درسها الجرجاني في نظريته ، وتقترن بالمعاني بنوعيها ، لهذا فان دراسة علم المعاني للتراكيب ادق واعمق من دراسة النحو لها ، فقد يدرس نص واحد من جوانب عدة ، ويؤدي اغراضاً بلاغية مختلفة فيكون بذلك شاهداً لاساليب بلاغية متنوعة ، وهذه الدقة في التعامل مع النصوص لا نجدها عند النحاة ، وهو ما يشكل خلافاً جوهرياً بين الميدانين

من هنا برزت نقاط الاختلاف والاتفاق بين معاني النحو ومعاني البلاغة ، فالاعراب من تخصص النحو بشكل رئيس وهو مالاصلة له بالبلاغة في حين ان اختلاف المعاني المتصله باختلاف التراكيب والجمل من صلب علم المعاني ، فضلاً عن ذلك فان هذه المعاني تعتمد الى حد كبير على الذوق الادبي اكثر من اعتمادها على القاعدة ، وهو ما يعلل اختلاف العلماء في تحديد بعض المعاني واغراضها ، ومع كل ذلك يبقى (علم المعاني) قريباً من النحو لكونه دراسة تركيبية له صلة باساليب الكلام المستندة الى قوانين النحو ، لهذا طبع بطابع الجفاف - بعض الشيء - وهذا ما يلمسه الدارس لعلم المعاني مقارنة بعلم البيان ، المحور الرئيس لعلم البلاغة ، اذا مااعتبرنا علم البديع تحسيناً عرضياً لا ذاتياً .

ان توخي الدقة في النظم سعياً الى معنى-مفهوم ، لم يكن من تخصص علم النحو ، لا سيما بعد خرز العلوم وتخصصها ، ولم تكن له صلة بالبلاغة علماً يبحث عن مواطن الجمال في اللغة والكلام - سيما في الفترة التي ظهر فيها كتاب الجرجاني - بيد ان اهمال النحاة لاراء الجرجاني ، وانشغالهم بالاعراب والعامل النحوي ادى الى ابتعادهم عن جهوده ، فضلاً عن ان نظرية النظم اعتمدت في الكثير من جوانبها على المباحث البلاغية كالكناية والاستعارة والتمثيل وبحثت المعاني التي تؤديها ، وهو المنهج نفسه مع الموضوعات النحوية كالفصل والوصل والتقديم والتأخير والحذف والذكر والاختصاص وغيرها ، والاهم من ذلك هو التوصل الى المعاني الثانية او (معنى المعنى) كما عرفها الجرجاني ، وهو غرض خفي متعذر الا على صاحب الذوق الادبي المرهف لانه « معنى ادبي يتلون بتلون العواطف والاحساسات ، ويؤدي جانبا من الامتاع والتأثير »[٤١] وقد يكون في كل ذلك مسوغات جعلت كفة البلاغة ارجح لاحتضان هذا الموضوع وتبنيه ، وقد كان لها ذلك

العلاقة بين المعاني ومقتضى الحال

يدعو الجرجاني في نظريته الى ترسيخ اسس النظم اي نظم الكلام وذلك بتطبيق قواعد النحو اولاً وترتيب الالفاظ وفق تلك القواعد بشكل نستطيع معه التماس معانيه المتعددة ثانياً ، فالجملة تتألف من ركنين اساسيين هما : المسند والمسند اليه فهي اما : مبتدأ او خبر ، او فعل وفاعل او صفة وموصوف او معطوف ومعطوف عليه ، والترتيب فيما بينها يؤدي الى الوضوح والافهام ، ولكن قد يقتضي المقام عدولاً عن هذه القواعد ، فيقدم ما حقه التأخير في المرتبة ، كتقديم الفاعل او المفعول به او الجار والمجرور او الخبر ، او غير ذلك مما يقتضيه السياق ، ويفضي الى امرين :

الاول : ظهور معانٍ جديدة لا تظهر الا بهذه المخالفة كالتخصيص او القصر .

الثاني : تجنب ما يسمى (باللبس) عند النحويين ، فقد يلتبس على القارىء التمييز بين المسند والمسند اليه مما يؤدي الى الفهم الخاطىء للمعنى ، لهذا يُخالف مقام الالفاظ تجنباً لذلك ، وتعرف هذه الظاهره عند البلاغيين بـ(مراعاة مقتضى الحال) ، لان لها صلة بالمخاطب والسامع ، ومدى استيعابهم وفهمهم للكلام ، وهي تعني مراعاة المستوى الذهني والثقافي عند مخاطبتهم ، بيد ان ذلك لا يعني بالضرورة اقامة الخطأ اللغوي لتحقيق ذلك .

لقد كانت هذه المراعاة لمقتضى الحال . مقياس البلاغة عند البلاغيين ، بل ان هذا التعريف الخاص بعلم المعاني ، كان في يوم ما ، تعريفاً للبلاغة ، وهو ايضاً مفهوم البلاغة عند العرب قبل ظهور العلوم وتخصصها ، فمقياس البلاغة عندهم هو توصيل المعنى الى فهم السامع مع التأثير فيه بغض النظر عن الاسلوب المتبع في ذلك ، لانه هو الذي يحدد هذا الأسلوب ، بلاغياً كان او عامياً طبقاً لقاعدة ، مراعاة مقتضى الحال .

والجدير بالاشارة ، ان السكاكي هو اول من اطلق هذه التسمية عند تعريفه لعلم المعاني ، وهو بذلك التعريف ينطلق من قاعدة لغوية عريضة تتعلق باساليب التعبير فيها ، اذ ان تقسيمات علم المعاني هي في الاصل اساليب غايتها الدقة في التعبير ، بل ان

موضوع الفصل والوصل ، كان تعريفاً خاصاً بالبلاغة ، مما يعكس الصلة بين المعاني ومقتضى ظاهر الحال الذي هو باب من ابواب البلاغة .

المعاني الثانية في القرآن الكريم .

من المعلوم ان القرآن الكريم كتاب مقدس ، هدفه الأساسي في ماتناوله ديني وانه نزل بلسان عربي مبين فحمل معه كل ما امتازت به هذه اللغة الكريمة من خصائص ، والمعاني الثانية احدى اهم هذه الخصائص التي انمازت بها اجزاء واسعة منه .

تقسم المعاني في القرآن الكريم الى معان ظاهرة يدل عليها الوضع اللغوي ، ومعان خفية تقترن غالبا بالجوانب الدينية لا سيما اسباب النزول ، وتمثل الاغراض البلاغية المعول عليها في السياقات القرآنية ونماذج هذه المعاني كثيرة ومتعددة ، تستدعيها ظروف القول ومناسبات الموقف ، منها ما يمكن الاستدلال بها من نسق النظم ومنها ما تقتضي [٤٢] التأمل والتدبر من مثل قوله تعالى : (اياك نعبد واياك نستعين)

فقد افاد التقديم والتأخير معنى (التخصيص) لان تقديم المفعول به على الفاعل قصر العبادة على الله تعالى وليس غيره ، ولو لم يكن هذا الترتيب من النظم لا نتفى ذلك التخصيص ، وادى توالى النون في نعبد ونستعين الى ظهور صورة بلاغية اخرى هي ظاهرة (السجع) الذي سماه ابن الأثير بمراعاة حسن النظم ، والنص الكريم بعد ذلك خبر مجازي يُفيد الدعاء ، فالفعلان (نعبد ونستعين) يدلان على الدعاء ، والمعنى اعنا على عبادتك ، وحقق الواو في النص الاتصال بين الجملتين الاولى والثانية لانهما خبريتان .

ولقد لفت الجرجاني الى اهمية هذه المعاني وبين تأثيرها في النفس اذا ما كشفت عنها وبلغت اغوارها كما اشار الى ان خلو الكلام منها يجعلها خاليةً من المزايا ، مستشهداً بآيات من القرآن الكريم لتوضيح ذلك ، فقال : « واعلم انه اذا كان بيناً في الشيء أنه لا يتحمل الا الوجه الذي هو عليه حتى لا يشكل ، وحتى لا يحتاج في العلم بان ذلك حقه وانه الصواب الى فكر وروية ، فلامزيةَ ، وإنما تكون المزية ويجب الفضل اذا احتمل في ظاهر الحال غير الوجه الذي جاء عليه وجهاً آخر ، ثم رأيت النفس تنبو عن ذلك الوجه الآخر ، ورأيت للذي جاء عليه حسناً وقبولًا تعدَهما اذا انت تركته الى الثاني ، ومثال ذلك قوله تعالى : (وجعلوا لله شركاء الجن)[٤٣] ليس بخاف ان لتقديم (الشركاء) حسناً وروعة ومأخذاً من القلوب انت لا تجد شيئاً منه ان انت اخرت فقلت : (وجعلوا الجن شركاء لله) وانك ترى ، حالك حال من نقل عن الصورة المبهمة والمنظر الرائق والحسن الباهر ، الى الشيء الغفل الذي لا تملى منه بكثير طائل ولا تصير النفس به الى حاصل ، والسبب في ان كان ذلك كذلك ، هو ان للتقديم فائدة شريفة ومعنى جليلًا لا سبيل اليه مع التأخير ، بيانه ، أنا وان كنا نرى جملة المعنى ومحصوله أنهم جعلوا الجن شركاء وعبدوهم مع الله تعالى ، وكان هذا المعنى يحصل مع التأخير حصوله مع التقديم ، فان تقديم (الشركاء) يفيد هذا المعنى ، ويفيد معه معنى آخر ، وهو انه ما كان ينبغي ان يكون لله شريك لا من الجن ، ولا غير الجن ، واذا أُخر فقيل : (جعلوا الجن شركاء الله) لم يفد ذلك ولم يكن فيه شيء اكثر من الاخبار عنهم بانهم عبدوا الجن مع الله تعالى »[٤٤]

ومن نماذج المعاني الثانية في القرآن الكريم ، الاغراض المجازية التي تخرج اليها النصوص القرانية ، لا سيما اساليب الخبر والانشاء تحقيقاً لاهداف بلاغية مقصودة في السّياق كقوله تعالى : (فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا)[٤٥] فثمة غرض مجازي يكشف عنه السياق ، وان بدا الاستفهام واضحاً ، لان القول السابق على لسان اهل النار وهم يطلبون امراً غير ممكن الحصول ، وقوله تعالى : (فأتوا بسورة من مثله)[٤٦] ، فالامر هنا وان كان حقيقياً الا انه ورد في سياق التعجيز للكافرين في تحقيق هذا الامر ، وعلى هذا فالغرض في المثال الاول هو التمني ، وفي الثاني التعجيز وهما يمثلان المعاني الثانية فيهما ،

والجدير بالملاحظة ، اختلاف البلاغيين في تحديد هذه الاغراض لانها تعتمد الذوق مقياساً في تحديدها .

ويمثل الجانب النفسي صورة من صور المعاني الثانية في القرآن الكريم ، فقد توجه هذا الكتاب العظيم الى النفس الانسانية فخاطبها وحرك مشاعرها ولمس احاسيسها من جوانب عدة ، ولقد حظيت المرأة بالجانب الاكبر من هذه الرعاية ، فكان لخطابها اسلوب خاص لا سيما في مواضع الامر والنهي ، كقوله تعالى : (والوالدات يرضعن اولادهن حولين كاملين)[٤٧]

والنص الكريم صريح في طلبه من الام المرضع ، فهو خطاب لها بالتزام مدة محددة في رضاعة ولدها ، وقد حقق اسلوب الخبر المجازي المؤدي في سياق الامر الحقيقي ذلك ، الا انه لم يكن امراً مباشراً ، ولا شك في ان مراعاة الجانب النفسي للمرأة هو المسوغ لهذا الاسلوب ، لان الامر المباشر ، قد يولد صعوبة ومشقة في تنفيذه وقد يؤدي الالزام الى الاعراض والتلكؤ لهذا اكتفى السياق بخطاب غير مباشر اكراماً لمشاعر الام ومراعاة لها لما عرف عنها من الرقة ورهافة الحس ، وفي هذه المراعاة تكمن المعاني الثانية ، في النص الكريم ، ولا يختلف عنه في ذلك قوله تعالى : (والمطلقات يتربصن)[٤٨]

ان المعاني الثانية في القرآن الكريم متعددة تتلون بين الاساليب والتراكيب والسياقات القرآنية والجوانب الدينية والتأثيرات النفسية وتكمن بلاغتها في انها تتعلق بنظم محكم واسلوب بليغ ، وغرض نبيل ، واذا اضفنا الى ذلك اهمال النحاة لجانب المعاني ، وتركيزهم على العامل النحوي والوقوف عند اواخر الكلم ، لعلمنا بوضوح اسباب استقرار هذا العلم في ميدان البلاغة ، ولولا ذلك لضاع هذا العلم بين طيات الكتب ولما اضحى علماً مستقلًا له اسسه وقوانينه ومناهجه التي وضعها علماء اجلاء ، في مقدمتهم شيخ النحاة سيبويه ، وشيخ البلاغيين الجرجاني ، وهو ما يكفيها شرفاً ويزيدها نُبلًا بين علوم العربية .

الهوامش

(١) سيبويه : ١ / ٢٥
٢ - ٣ - ٤ - ٥ : سيبويه : ١ / ٢٥
٦ - مقدمة معاني القرآن : / ١١
٧ - أشتقاق اسماء الله : ٢٩٥
٨ - المصدر نفسه
٩ - البقرة : ٢٠٨
١٠ - محمد : ٣٥
١١ - النساء : ٩١
١٢ - الفرقان : ٦٣
١٣ - معاني القرآن للاخفش : ١ / ١٦٧
١٤ - البيان والتبيين : ١ / ١٣٥
١٥ - النساء : ١٦٣
١٦ - مريم : ١١
١٧ - النحل : ٦٨
١٨ - الشورى : ٥١
١٩ - الزلزلة : ٥
٢٠ - تاويل مشكل القرآن / ١٢٣
٢١ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن : ٢٤
٢٢ - الصناعتين : ٧٥
٢٣ - الصاحبي في فقه اللغة : ١٦٩
٢٤ - اعجاز القرآن : ٣٥
٢٥ - المغني في ابواب التوحيد والعدل : ١٦ / ١٩٩
٢٦ - نفسه : ٣٨٧
٢٧ - دلائل الاعجاز : ٤
٢٨ - نفسه : ٨١
٢٩ - نفسه : ٢٦٢
٣٠ - دلائل الاعجاز : ٢٦٣
٣١ - نفسه : ٤١٠
٣٢ - دلائل الاعجاز : ٤١٠
٣٣ - نفسه : ٥٢
٣٤ - مفتاح العلوم : ٧٧
٣٥ - ينظر منهاج البلغاء : ٢٣
٣٦ - منهاج البلغاء : ٢٤
٣٧ - نفسه : ١٧٢
٣٨ - شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك : ١ / ١٤
٣٩ - مفتاح العلوم للسكاكي : ٧٧
٤٠ - دلائل الاعجاز : ٨١
٤١ - المعاني الثانية في اسلوب القرآن الكريم : ١٤١
٤٢ - الفاتحة : ٥
٤٣ - الانعام : ١٠٠
٤٤ - دلائل الاعجاز / ٢٨٦
٤٥ - الاعراف : ٥٣
٤٦ - البقرة : ٢٣
٤٧ - البقرة : ٢٣٣
٤٨ - البقرة : ٢٢٨

المصادر والمراجع

١ - القرآن الكريم
٢ - اشتقاق اسماء الله / الزجاجي ابو القاسم عبد الرحمن بن اسحاق / تحقيق عبد الحسين المبارك / مطبعة النعمان / النجف ١٣٩٤ - ١٩٧٤
٣ - اعجاز القرآن / الباقلاني / ابو بكر محمد بن الطيب ، تحقيق احمد صقر ، دار المعارف مصر
٤ - الايضاح في علوم البلاغة الخطيب القزويني / تحقيق لجنة اساتذة العربية بالازهر
٥ - البيان والتبيين ، الجاحظ / تحقيق عبد السلام هارون / القاهرة - ١٣٩٧ - ١٩٤٨
٦ - تأويل مشكل القرآن / ابن قتيبة الدينوري / شرح وتحقيق احمد صقر دار احياء الكتب العربية / عيسى اليابي الحلبي وشركاه
٧ - ثلاث رسائل في اعجاز القرآن / الخطابي والرماني والجرجاني / تحقيق محمد خلف الله احمد / ومحمد زغلول سلام / دار المعارف بمصر
٨ - شرح ابن عقيل على الفية ابن مالك / قاضي القضاة بهاء الدين عبد الله بن عقيل الهمداني ت (٧٦٩ هـ) ط٢٠ / ١٩٨٠ مطابع المختار الاسلامي
٩ - الحيوان / للجاحظ ، ابو عثمان عمرو بن بحر / تحقيق عبد السلام هارون القاهرة ١٣٥٦ / ١٩٣٨
١٠ - دلائل الاعجاز / الجرجاني / ابو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن / قراءة وتعليق محمود محمد شاكر / مطبعة المدني / مصر .
١١ - الصاحبي في فقه اللغة وسنن العربية في كلامها / احمد بن فارس تحقيق مصطفى الشويمي / بيروت ١٣٨٣ - ١٩٦٤
١٢ - الصناعتين الكتابة والشعر / ابو هلال العسكري / تحقيق علي محمد بجاوي محمد ابو الفضل ابراهيم / مطبعة عيسى البابي وشركاه .
١٣ - الكتاب / سيبويه / تحقيق عبد السلام هارون / مطبعة دار القلم ١٣٨٥ - ١٩٦٦
١٤ - المعاني الثانية في اسلوب القرآن الكرين / د . فتحي احمد عامر / مطبعة اطلس القاهرة
١٥ - معاني القرآن / الفراء / تحقيق احمد يوسف ومحمد علي النجار / مطبعة دار الكتب المصرية